إضاءات من قوله تعالى:((بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)) للوُقُوفِ عَلى مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ وَتَجَلّيَاتِ رَأْفَتِهِ

2022-11-04

الحمد لله الذي البَرّ الكريم. ذي الفضل العظيم. بشّرتنا آياته في الذِّكر الحكيم. ببشارة:((لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)). فمَن جاءته هذه البشارة وتلقّاها بقلب سليم. فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم. فسبحانه من إله تفضّل بهذا الرسول الأكرم. صلى الله عليه وآله وسلَّم. على هذه الأُمّة التي به صارت أكرم الأُمَم. وحُقّ لها واللهِ الفخر التام. والفرح العام. بوجوده بينهم. ولِمْ لا وقد أَقَرَّ الله به عَيْنَهم. فبشرى لنا معشر الإسلام به. بشرى وأيّ بشرى. فإنّ لنا به من العناية ركنا غير منهدِمٍ في الدنيا والأخرى. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ؛ تفضّل علينا. وجعلنا من أُمّة هذا النبيّ الكريم. عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ولم يكن لنا اختيار فيما اختاره لنا. وذلك من عظيم فضله العميم. فهنيئا لنا بسيِّدِنا ومولانا محمد. صلى الله عليه وسلم. ثم هنيئا جامعا لجميع التهاني. لِمَا حصل لنا به من الأمان. وما نحصل على يده الشريفة من الأماني. جاءنا بالهدى. وأنقذنا من الرَّدى. عليه من الله أزكى صلاة وأذكى سلام. وَأَشْهَدُ أَنَّ سيّدنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ وصفيّه من خلقه وخليله. النبيّ الْمُصْطَفَى الْمَرْفُوعُ. والْحَبِيبُ الْمُتَحَبَّبُ الْمُخْتَارُ، مَوْلِدُهُ مَكَّةَ، وَمُهَاجَرُهُ بِطَيْبَةَ، وَمُلْكُهُ بِالشَّامِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ، وَلا صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلا مُتَزَيِّنٍ بِالْفُحْشِ، وَلا قَوَّالٍ بِالْخَنَا، لا يَجْزِي السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ، رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ، يَبْكِي لِلْبَهِيمَةِ الْمُثْقَلَةِ، وَيَبْكِي لِلْيَتِيمِ فِي حِجْرِ الأَرْمَلَةِ، لو يَمُرُّ إلى جَنْبِ السِّرَاجِ لم يُطْفِئْهُ مِنْ سَكِينَتِهِ. ولو يَمْشِي على الْقَصَبِ الْيَابِسِ لم يُسْمَعْ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، السِّرَاجُ المُنِير. والبشير النذير. الذي هدانا الله به بَعْدَ الضلالةِ. وعَلَّمنا به

بَعْدَ الجَهالةِ. وأخرجنا به من الظلمات إلى النور. وكنّا به خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ.

هذا نبيٌّ كريمٌ حبُّه شرفٌ * وجاهُه ملجأٌ للمرتجِي كَنَفُ
أَوصافُه أَعجزتْ وَصْف الذي يَصفُ * يا مؤمنين بعلاّم الخفيّاتِ
صلّوا على المصطفى بحر الكراماتِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. طَيِّبِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، وَحَسَنِ السِّيرَةِ وَالأَحْوَالِ، وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ هُمْ خَيْر أَهْلٍ وَأَكْرَمِ آلٍ، وَصَحَابَتِهِ جَدَاوِلِ الكَرَمِ وَالنَّوَالِ، صَلَاةً تُغَيِّبُنَا بِهَا فِي أَنْوَارِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ، وَتُلْبِسُنَا بِهَا مِنْ رِضَاكَ ورِضَاهُ حُلْتَيِ البَهَاءِ وَالكَمَالِ، وَتَسْقِينَا بِهَا مِنْ حَوْضِه العَذْبِ الشَّهِيِّ الزُّلَالِ، شَرْبةً لاَ نَظْمَأُ بعدها أبدًا بِفَضْلِكَ وَكَرَمِكَ يا ذا الإحسان والإفضال. برحمتك يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا رَبَّ العَالَمِينَ. **أمّا بعد:** فيا أحباب رسول الله. صلى الله عليه وآله وسلَّم. إنَّ نَبِيَّنَا صلى الله عليه وآله وسلَّم قَدْ خَصَّهُ اللهُ بِصِفَاتٍ لَمْ تَكُنْ لأَحَدٍ مِنَ المَخْلُوقِينَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ، وَحَسْبُنَا أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ وَصَفَهُ بِصِفَتَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ وَصَفَ بِهِمَا نَفْسَهُ، وَهُمَا الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ؛ فَكَانَ فِي ذَلِكَ إِلْمَاحٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ بَلَغَ فِيهِمَا الغَايَةَ، وَوَصَلَ فِيهِمَا إِلَى النِّهَايَةِ؛ فَهُوَ أَرْأَفُ خَلْقِ اللهِ بِخَلْقِهِ، وَهُوَ أَرْحَمُ المَخْلُوقِينَ بِالمَخْلُوقِينَ، وَلَمْ تَكُنْ رَحْمَتُهُ بِالأَحْيَاءِ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَتْ لِلْجَمَادَاتِ أَيْضًا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِ الحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كما في سورة الأنبياء:((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)). نَعَمْ، هُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ مِنَ الأَحْيَاءِ وَالجَمَادَاتِ، وَمَا أَكْثَرَ صُوَرَ رَحْمَتِهِ! وَمَا أَكْثَرَ مَا نُقِلَ عَنْ ذلِكَ مِنْ أَخْبَارِهِ! وَهَلْ ذَلِكَ المَنْقُولُ إِلاَّ نُقْطَةٌ مِنْ بَحْرٍ أَوْ ذَرَّةٌ مِنْ رِمَالٍ! فيا أحباب رسول الله. صلى الله عليه وآله وسلَّم. مَا أَحْوَجَنَا إِلَى الوُقُوفِ عَلى مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ، وَدِرَاسَةِ تَجَلِّيَاتِ رَأْفَتِهِ! لِتَكُونَ لَنَا عَوْنًا عَلى غَرْسِ الرَّأْفَةِ فِي قُلُوبِنَا، فَإِذَا حَدَّثَتْنَا نُفُوسُنَا بِقَسْوَةٍ تَذَكَّرَتْ رَحْمَةَ رَسُولِ اللهِ فَرَدَّتْ إِلَى مِنْهَاجِ رَسُولِ اللهِ؛ لِيَكُونَ التَّأَسِّي بِهِ سَجِيَّةً قَلْبِيَّةً وَصِفَةً نَفْسِيَّةً، وَلَيْسَ شَيْئًا تَتَكَلَّفُهُ نُفُوسُنَا؛ فَنَنْتَظِمَ فِي

سِلْكِ المُسَارِعِينَ فِي الخَيْرَاتِ؛ فَإِنَّ المُسَارِعِينَ فِي الخَيْرَاتِ هُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الطَّاعَاتِ عَنْ رَغْبَةٍ وَمَحَبَّةٍ، لا عَنْ تَكَلُّفٍ وَمَشَقَّةٍ. وَلْنَنْظُرْ كَيْفَ أَنَّ الحَقَّ جَلَّ جَلالُهُ بَدَأَ بِذِكْرِ الرَّأْفَةِ وَثَنَّى بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ الرَّأْفَةَ صِفَتُهُ القَلْبِيَّةُ، وَالرَّحْمَةَ تِلْكَ الأَقْوَالُ وَالأَفْعَالُ الَّتِي تَفِيضُ رِقَّةً وَحُبًّا لِلْخَيْرِ لِلنَّاسِ، فَالرَّحْمَةُ النَّبَوِيَّةُ قَوْلًا وَفِعْلًا آثَارُ رَأْفَتِهِ صلى الله عليه وآله وسلَّم؛ فَكَانَتِ الرَّأْفَةُ حَقِيقَتَهُ البَاطِنَةَ، وَالرَّحْمَةُ حَقِيقَتَهُ الظَّاهِرَةَ؛ وَلا عَجَبَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّرْبِيَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ الإِلَهِيِّ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم:((أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي)). فيا أحباب رسول الله. صلى الله عليه وآله وسلَّم. إِذَا أَرَدْنا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ رَحْمَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلَّم فَحَدِّثْ عَنِ البَحْرِ ولا حرج! فَإِنَّنا سَنَجِدُهَا فِي تَعَامُلاتِهِ مَعَ أَهْلِهِ وَمَعَ أَوْلادِهِ، وَمَعَ أَحْفَادِهِ وَمَعَ مَنْ يَخْدُمُهُ، وَمَعَ أَصْحَابِهِ وَمَعَ أَعْدَائِهِ، وَمَعَ النِّسَاءِ وَمَعَ الرِّجَالِ، وَمَعَ الصِّغَارِ وَمَعَ الكِبَارِ، وَمَعَ المُصِيبِ وَمَعَ المُخْطِئِ، وَمَعَ الإِنْسَانِ وَمَعَ الحَيَوَانِ، وَمَعَ الحَيِّ وَمَعَ الجَمَادِ، بَلْ إِنَّ الرَّحْمَةَ تَفِيضُ مِنْهُ فِي كُلِّ حِينٍ حَتَّى فِي حِينِ صَلاتِهِ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلَّم كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنتَ زَينَبَ بِنتَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلَّم فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا، وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم بِالنَّاسِ صَلاةَ الفَجْرِ فَقَرَأَ فِي الأُولَى بِسُورَةِ مَرْيَمَ، وَقَرَأَ فِي الأُخْرى بِسُورَةِ ((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)). فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ سَمِعَ صَبِيًّا يَبْكِي، فَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ أُمُّهُ تُصَلِّي مَعَ النَّاسِ فَتَتَأَخَّرَ عَلَيْهِ؛ فَتَجَوَّزَ فِي صَلاتِهِ رَحْمَةً بِهِ وَبِأُمِّهِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ:((إِنِّي لَأَقُومُ في الصَّلاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ في صَلاتي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ)). فَهَذَا فِي الصَّلاةِ فَكَيْفَ بِرَحْمَتِهِ وَهُوَ فِي غَيْرِ الصَّلاةِ! وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم يَرَى شَيْئًا مِنَ الفِعْلِ لا يَلِيقُ، فَيَقُومُ إِلَى إِصْلاحِهِ لِيَتَنَبَّهَ النَّاسُ أَنَّهُ خَطَأٌ، وَيَعِظُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الفَاعِلِ؛ فَيَتَنَبَّهُ الفَاعِلُ لِخَطَئِهِ وَيَنْتَبِهُ النَّاسُ، وَتَزْدَادُ مَحَبَّتُهُ لِرَسُولِ اللهِ

صلى الله عليه وآله وسلَّم، حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ:((بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا، قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ، أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ)). صلى الله عليه وآله وسلَّم. فيا أحباب رسول الله. صلى الله عليه وآله وسلَّم. وَانْظُرُوا في مَظَاهِرِ رَأْفَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم، وَتَدَبَّرُوا فِيمَا بَلَغَكُمْ مِنْ أَخْبَارِ رَحْمَتِهِ، تُدْرِكُوا اسْتِحْقَاقَهُ لِوَصْفِ رَبِّهِ لَهُ:((بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)). وَمَاذَا نَذْكُرُ وَمَاذَا نَتْرُكُ! فَكُلُّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَكَلِمَاتِهِ وَنَظَرَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ وَتَعَامُلاتِهِ، رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ، وَتَأَمَّلوا في تَعَامُلِهِ مَعَ مَنْ يَخْدُمُهُ وَيَعْمَلُ مَعَهُ، فَهَلْ سَنَجِدُ أَرْقَى مِنْ ذَلِكَ! فَقَدْ قَالَ سيّدنا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه، وَقَدْ خَدَمَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم عَشْرَ سِنِينَ. قال:((خَدَمْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ أَوْ ضَيَّعْتُهُ فَلامَنِي، فَإِنْ لامَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ دَعُوهُ؛ فَلَوْ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ كَانَ))، وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:((مَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذا، وَلا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذا))، بَلْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم يُعَامِلُ مَنْ يَخْدُمُهُ وَيَعْمَلُ مَعَهُ فِي بَيْتِهِ مُعَامَلَةَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ:((هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))، وَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلَّم:((إِذَا جَاءَ خَادِمُ أَحَدِكُمْ بِطَعَامِهِ فَلْيُقْعِدْهُ مَعَهُ أَوْ لِيُنَاوِلْهُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَلِيَ حَرَّهُ وَدُخَانَهُ))، نَعَمْ، إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ، الرَّحْمَةُ المُهْدَاةُ وَالنِّعْمَةُ المُسْدَاةُ. صلى الله عليه وآله وسلَّم. فيا أحباب رسول الله. صلى الله عليه وآله وسلَّم. نحمد الله تعالى أن جعلنا من هذه الأمّة المحمّديّة. أُمّة الإجابة. التي أعزّها الله بالإسلام. ورفع منارها باتّباع خير الأنام. عليه الصلاة والسلام. فحريٌّ بنا أن نعرف ما يتعيّن له صلى الله عليه وآله وسلَّم من الحق في وُجوب محبّته. وواجب نصرته. عليه الصلاة والسلام. هنا لابدّ من إبراز معالم اصطفاء الحق سبحانه وتعالى لهذا النبي الكريم. صلى الله عليه وآله وسلَّم. وإبراز معالم محبوبية الله تعالى له. فرسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم

لم يكن بِدْعًا من الرُّسُل. ولكنّ الله جلّ جلاله قد خصّه بخصائص. وأفرده بكمالات. لم يُشارِكه فيها أحدٌ من إخوانه من الأنبياء والمرسلين. عليهم الصلاة والسلام. لهذا ينبغي أن نَعلَم أنه من آكَد الحقوق له صلى الله عليه وآله وسلَّم علينا أن نُذكِّر بأيّامه الخالدة. وأن نعرِّف بقدره ومقداره. وأن نَذكُر مآثره وفضائله. ومناقبه وخصائصه. عليه الصلاة والسلام. نعم. إنّ التذكير برسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم واجبٌ يحتّمه علينا انتماؤنا لهذا النبي الكريم. صلى الله عليه وآله وسلَّم. الذي شرّف الله هذه الأمّة بانتسابها إليه.

وإذا ما الجنابُ كان عظيمًا * مُدّ منه لخادمِيه لواءُ
وإذا عَظُمت سيادةُ متبوعٍ * أَجلَّ أتباعَه الكُبراءُ

وإذا كان بذِكر الصالحين تتنزّل الرحمات والبركات. فما ظنّكم برأس الصالحين. ما ظنّكم برسول وحبيب رب العالمين. صلى الله عليه وآله وسلَّم. في كل وقت وحين. فنسأل الله تعالى أن يُعرِّفنا قدْر هذا النبيّ الكريم. صلى الله عليه وآله وسلَّم. حتّى نقومَ بما يجب له من التعظيم والإحترام. واملأ اللهمّ قلوبنا بكمال بمحبته صلى الله عليه وآله وسلَّم. اللهم ارزقنا صِدْق الإنحياش إليه. وصِدْق الإتّباع له. وحُسْن الأدب معه. وكمال الإقتداء بهديه. وسنّته. والعمل بشريعته. صلى الله عليه وآله وسلَّم. وشرَّف وكرَّم. ومجَّد وعظَّم. ووالى عليه ذلك وأنعَم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخِر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ